شبهات في شعر محمود درويش

د. غازي مختار طليمات
سورية

«أنا يوسف يا أبي» قصيدة حديثة العهد والطراز، نظمها الشاعر الفلسطيني محمود درويش، وغناها المغني اللبناني مرسيل خليفة، وتناولها بالنقد أكثر من ناقد، ووُجّه إليها أكثر من اتهام، فليس من المستغرب أن ينتهي النقد بها وبمن غناها إلى المحاكم.

قرأت القصيدة، فاقتحمتها عيني، ولم أجد فيها ما يميزها من مثيلاتها سوى السرد المُمل، والأثرة المتعالية، والاقتباس السطحي من قصة يوسف عليه السلام. أما السمات التي تلحقها بأترابها من قصائد الحداثة فكثيرة، أبرزها فتور الحسّ وضؤولة الحظّ من التألق الفني، وانطفاء الألفاظ، وضعف المشاعر المنبعثة منها، والخلل في العروض، والرمزية المحدودة الإيحاء، الضحلة المدلولات، ومحاولة الإفادة غير الموفقة من النص القرآني في ميدان السياسة والصراع بين ذوي القربى.

وقبل أن أقف على القصيدة كنت قد قرأت تعليقات عليها، كتبها نقاد أفاضل، ونشرتها «المسلمون» في عددها ذي الرقم (٦١٠) نشراً أمينا. ومن يقرأ هذه القصيدة والتعليقات التي طال بعضها حتى غدا مقالة كاملة يجدْ أن النقاد مجمعون على الزراية بالقصيدة شكلا ومضموناً. ولهذا حملت كلامهم في بداية الأمر - وأكثرهم ممن يضيقون صدراً بالشعر الحديث - على محمل التحامل والتنقّص. فلما قرأت النص أدركت أنهم أنصفوا ولم يسرفوا، وحكموا فلم يظلموا، وأن الشهرة لا يمكن أن تكون عوضا من الإجادة في ميدان الفن.

محمود درويش

ولعل أبرز ما أثار اهتمامي من تعليقات هؤلاء النقاد قولُ د. مصطفى الشكعة: «الذين يكتبون مثل هذه القصائد يبحثون عن الشهرة فقط من خلال الإساءة للدين والمقدسات الإسلامية».

أقول: إن كلمة الدكتور الشكعة أثارت اهتمامي، فلم أقنع من شعر الدرويش بقراءة القصيدة المثيرة للجدال، المتهمة بالتطاول على المقدسات الإسلامية، بل رجعت إلى ديوان الشاعر المنشور في بيروت عام ١٩٨٧م، وفيه ثمانية دواوين تضمّ أكثر شعره، ويقع في (٦٦٧) صفحة من القطع الكبير. ورحت أنتقل بين جنباته، وفي خاطري أسئلة كثيرة تبحث عن أجوبتها، وامتعاض خفيٌ من النقاد الذين رسموا فوق الصورة المرسومة للشاعر في ذهني علامات استفهام، حتى شاهت هذه الصورة أوكادت تشوّه. ومحور هذه الأسئلة سؤال خطير، هو مامدى الإساءة التي يرمي بها د.مصطفى الشكعة الشاعر الفلسطيني؟

سبق أن قرأت مقداراً من شعرالدرويش، ولم ألاحظ قبلُ هذه الإساءة. ترى أ في الديوان شعر لم أقرأه، أم قرأته قراءة المستطلع المتمتع بالجمال لا قراءة المحقق المدقق الباحث عمّا وراء الكلمات من دلالات، وعما في هذه الدلالات من شبهات؟ والآن وبعد تقلبي بين طرفي الخصومة أعود إلى الديوان لأقرأه بعين الباحث عن الأدلة، لا بعين الصديق المغتفر للهفوات المتجاوز عن السيئات. وفي أثناء القراءة تبيّن لي أنني كنت مقصرا أو قاصراً، وأن عين الرضى عن كل عيب كليلة، وأن الذين اتخذوا النقد صناعة أقدر مني ومن أمثالي من القرّاء المتطفلين على مائدة الشعر، إذْ أدركوا ما لم أدرك، وفسّروا الشعر التفسير اللائق به.

ففي قصيدة (المزمور الحادي والخمسون بعد المئة) تطالعك من الكلمة الأولى في العنوان إلى

الكلمة الأخيرة في النص ألفاظ عبرية الأصل، كتابية (نسبة إلى أهل الكتاب) الدلالات تخالط النص العربي الإسلامي، وتخلع عليه ظلالاً غير إسلامية، كأنّ الشاعر يقرّ بأن لهذه الثقافة الدخيلة الحق في منافسة الثقافة الأصيلة والطغيان عليها. فالقدس تسمى (أورشليم) والجهاد يحمل شعار الصليب، والتسبيح لله يتردد باللفظ العبري اليهودي المسيحي (هللويا). يقول محمود درويش في بداية القصيدة:

أورشليم التي ابتعدت عن شفاهي
المسافات أقرب

ويقول في نهايتها:

يسقط البعد في ليل بابل
وصليبي يقاتل
هلّلويا، هلّلويا، هلّلويا

وتستطيع بعين الرضى وأذنه أن تتغاضى عن ذلك كله، فتقول: أحب الشاعر أن يتظرّف، فلوّن العربية بألوان أجنبية، ثم تضطر بعد التغاضي إلى أن تفتح العين والأذن لترى الحقيقة وتسمعها حينما يقرن الشاعر الأنبياء بالأساطير، فيقول:

أورشليم التي أخذت شكل زيتونة
دامية
صار جلدي حذاء
للأساطير والأنبياء

إنك تعلم علم اليقين أن الأساطير التي صنعت الفكر اليوناني والروماني، وكادت تصنع الشعر الحديث مرفوضة في الفكر العربي الإسلامي، لأنها توأم الوثنية. فكيف يقرنها الشاعر العربي المسلم بالأنبياء؟ ثم كيف يجعل قصة الصلب والصليب التي برّأ القرآن الكريمُ المسيح عليه السلام منها أساسَ التضحية في ملحمة الجهاد الفلسطيني؟ يقول محمود درويش في قصيدته (حبيبتي تنهض من نومها):

كيف اعترفنا بالصليب الذي
يحملنا في ساحة النور
لم نتكلم
نحن لم نعترف
إلا بألفاظ المسامير

ومن يتتبّع الصلبان المشرعة في الديوان يُخيل إليه أن الشاعر أحرصُ من بابوات العصور الوسطى وعصر النهضة على رفع هذا الشعار بالمعنى المناسب، وينفخ خياله بالصورة الموحية، فهو يحمل الصليب راية يتعبّد تحتها مرة، فيقول:

فإذا احترقت على صليب عبادتي
أصبحت قديساً بزي مقاتل

ويضحي بروحه تحتها مرّة أخرى، فيقول:

شكراً صليبَ مدينتي شكراً
لقد علمتنا لون القرنفل والبطولة

ألم يستطع الشاعر أن يتعلم البطولة والفداء من أبطال اليرموك وعين جالوت، أو من أطفال الحجارة؟ أو لم يجد في رايات الفتح العربي الإسلامي راية مرفوعة على حطين مطرزة بصورة الهلال، لا راية من رايات رتشرد قلب الأسد مطرزة بصورة الصليب ليموت تحتها شهيداً لا قديسا؟ وهل أصبحت الأعلام الصليبية المقرونة في التاريخ الأوربي بالظلم والاستعمار والطغيان أقرب إلى قلب الشاعر من رايات صلاح الدين؟ إن هذا الأمر عُجاب!!

وأعجب منه أن الشاعر يصبغ التضحيات التي يقدم القدر الأكبر منها شعبُ فلسطين العربي المسلم بصبغة مسيحية تباركها الكنائس لا المساجد، وتستقبل بقرع النواقيس لا بجلجلة الأذان، يقول محمود درويش في قصيدته (النزول من الكرمل):

ويا أيها الكرمل
الآن تقرع أجراسُ كل الكنائس
وتعلن أن مماتي المؤقت لا ينتهي دائماً

ولا يُفهمن من هذا الكلام أننا نبخس الناس أشياءهم، أو نغمط الآخرين حقّهم، فإذا لم يكن بد من رفد الجهاد بالنضال، ليكون المسيحيون شركاء للمسلمين في مجابهة الاحتلال الصهيوني فإن هذا الرفد لا يعني طمس الجهاد الإسلامي، وتغليب القليل على الكثير، أو محو التاريخ والقفز من فوق الحواجز لربط الشتات الفلسطيني بالأسر البابلي، على نحو يوحي بحقّ الذين شردهم الأسر البابلي في العودة إلى فلسطين، ولا يسوّغ في الوقت نفسه إعادة الفلسطينيين إلى ديارهم على إيقاع الترنيم بالعبرية لا على أصداء التكبير بالعربية:

آه يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريبا
وقريبا تكبرون
وقريباً، وقريباً، وقريبا
هلّلويا، هلّلويا، هلّلويا

لقد أرّخ الرعيل الأول من شعراء العصر الحديث لأحداث النكبة والنكسة وملحمة رمضان واجتياح لبنان، ومنهم أبو سلمى، وعبدالرحيم

محمود، وفدوى طوقان، وعمر أبو ريشة، وبدوي الجَبل، وسليمان العيسى، ولكنهم لم يخرجوا من جلدهم، ولم يخطر لواحد منهم أن يصور القضية العربية تصويراً هجيناً، ولم تجر ألسنتهم بعبارة واحدة تخالطها شبهة، أو تجرح حسّاً، أو تدنس مقدساً، فتقبّلهم الناس، وجانبتهم الشكوك، وبرئ شعرهم من النقد والتجريح، ولم يضطر واحد منهم إلى الوقوف في قفص الاتهام ليدفع الريبة عن نفسه، بل دفعها قبل أن تخالط نفسه وحسه، وتبرّأ منها قبل أن تشوب فكره وشعره، فتجنب العار بالحذار، ولم يمح العوار بالاعتذار: {**بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**}. [القيامة:١٤-١٥].

ولست أنكر أنه آلمني أشد الإيلام اتهام علم من أعلام الشعر بما أكره ويكره، فلجأت إلى شعره لأستخرج منه الأدلة على براءته، فوجدتني أقف مضطراً مع الفريق الآخر، إذ وجدت في ألفاظه من الجراءة على الحق، ومن التحدي والمكابرة ما لا قِبَلَ لي بردّه أو تفنيده، كقوله في قصيدة (الخروج من ساحل المتوسط):

وأكتب باسمها موتي على جميزة
فتصير سيدة وتحمل بي فتى حرا
فسبحان التي أسرت بأوردتي إلى يدها

إن التسبيح بلفظ (سبحان) وَقْفٌ على الله جلّ جلاله، ولم نسمع أحداً من الشعراء والكتاب المسلمين وغير المسلمين أضاف هذا اللفظ إلى غير الله، ففيم هذه القحة؟ وإذا كان أسوأ ما يسوء المسلم أن يمسّ الشاعر العربي المسلم عقيدته بكلمة غير مهذبة كالكلمة السابقة فإن استياءه يبلغ غايته حينما تُطعن هذه العقيدة طعنة تصيب سويداء القلب. وسويداء القلب في العقيدة الإسلامية وحدانيةُ الله وتنزيهه عن الشرك، والإصرار على تصورّه متعالياً عن الأشباه والنظائر، وعلى أن لا يشاركه في صفة من صفاته أحد من خلقه، وعلى أنه ليس له صاحبة ولا ولد، ولم ينجبه والد ووالدة، فكيف يقول محمود درويش في قصيدة (آه عبدالله):

قال عبدالله للجلاّد
جسمي كلمات ودويّ
ضاع فيه الرعد
والبرق على السكين
والوالي قوي
هكذا الدنيا
وأنت الآن يا جلاد أقوى
وُلد الله وكان الشرطي

وعبارة (وُلد اللهُ) التي تجرح الحسّ الإسلامي تتكرر في خواتيم الفقرات التي تتألف منها هذه القصيدة تكراراً يجعلها نابية وفق كل المقاييس الفكرية والفنية. ولو خُيّل إليك كما خُيّل إليّ أن المقصود بها نقد الاستبداد المتألّه المتغطرس في الوطن العربي. لتقبلت الفكرة على مضض، ورفضت التعبير بلا تردد، ولما ساغت في لهاتك ولادة الله، ولأخفقتَ في التماس العذر لقائلها.

لقد كان في إمكانه أن يقول: وُلد البغي، أو ولد الظلم، أو نجم الشرُّ، أما أن يجعل الشرطي عدْلاً لله جلّ جلاله، وأن يعبر عن ظهور العسف بقوله (ولد الله) فهذا لعمري غاية التحدي لقوله تعالى: {**قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد***}. ولو قال: إن رب الظلم هذا الشرطي، أو: وإله الظلم كان الشرطي لهان الأمر، لأن لفظ الإله يمكن أن ينصرف إلى الآلهة المتعددة التي تخصص كلّ واحد منها بشيء، فلليونان إله للخمر، وربة للجمال، وآخر للشهوة. أما لفظ الجلالة فله من القداسة ما يجعله فوق الأوصاف البشرية.

وبعد.. فإن الشعراء أصحابُ هَفَوات وبَدَوات وأصدق ما قيل في بدواتهم قول أصدق القائلين: {**والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون**}. [**الشعراء:٢٢٤-٢٢٦**].

فإذا كان محمود درويش حريصا على المنزلة التي تبوأها فعليه ألا يجعل التشهير وسيلة للشهرة، والاجتراء سلما للارتقاء، وأن يقدر عقيدة الذين قدموا له من دمائهم وأرواحهم مادة شعره لكي يكبروه ويقدروه. فإن حبّ شعبه له خير من جائزتي اللوتس ولينين، وأليقُ بصدره من درع أو وسام يعلقه عليه من يكره العرب، ويكيد للمسلمين، لأنه ولو عاش قرنا في باريس سيظلّ في نظر الأجانب مقترناً بالزمان والمكان اللذين يشهدان على مولده في قرية البروة من قرى عكا في فلسطين، وهذا المولد وسامه الأكبر، ولو تجرد منه لم يكن لشعره كله أدنى منزلة في دنيا الشعر الحديث.